صيغ الترجيح عند الإمامين الطبري والطاهر بن عاشور (دراسة مقارنة)

إعداد

د. أحمد عبد الكريم

Dr.ahmed abdulkareem

أستاذ في قسم التفسير - كليه العلوم الإسلامية

في الجامعة العراقية

د. أبو الفتوح عبد القادر شاكر

Dr.Abu Alfutooh Abdullqadir shakir

The Methodology of Determining the Preponderant View According to Imams Al - Tabari and Al - Tahir Ibn Ashur: A Comparative Study

Dr.. Aboul Fotouh Abdul Qadir Shakir

Bashir Karim Mahdi

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبينا محمد المصطفى، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى..

وبعد؛ تعددت أنواع الدراسات القرآنية لأهميتها وشرف تعلقها بدستور المسلمين المتكامل كنسيجٍ موضوعي ِهادف من ذلك كانت دراستي تدور حول موضوعية(صيخ الترجيح عند الامامين الطبري والطاهر بن عاشور (دراسة مقارنة)

أما بعد؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ هذا الكتاب العزيز بسماتٍ جليلةٍ من البيان والإعجاز، ورفع منزلةَ من أقبل على تدبّره وفهمه. فجعل علم التفسير أشرفَ العلوم منزلةً، وأعلاها قدرًا، وأعظمها أثرًا، وأكرمها ثمرةً ؛إذ به تنكشف للقلوب أسرار الخطاب الإلهي، وتتجلّى للعقول أنوار الفهم الربّاني، وتنفتح للأنظار آفاق الهداية ومجالات الرشد.

وقد كان من عناية الله بهذه الأمة أن هيّأ لها رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فنهضوا بخدمة هذا الكتاب العظيم، وأعملوا قولهم في استنباط معانيه، وأمعنوا النظر في أسراره، ووازنوا بين ظواهره وبواطنه . فلم يألوا جهدا في استكناه غوامضه، وبيان ما أشكل من معانيه، وتوضيح ما استغلق من تفسيره، حتى غدوا مصابيحَ الدجى، وهداةَ سبيل الحق.

ومن طليعة أولئك الأعلام المبرّزين الإمام محمد بن جرير الطبري، الذي أرسى دعائم علم تفسير على أسسٍ متينةٍ من الرواية المحكمة والدراية المتقنة، فجاء تفسيره عمدةً في هذا الفن، ومرجعًا معتمدًا لدى أهل العلم، يتدفّق علمًا، ويزخر حكمةً، ويتّسم بدقة التحقيق وجودة التمحيص .

ثم جاء في إثره في موكب الفضل والتميّز الإمام الطاهر بن عاشور، صاحب التفسير الموسوعي الرصين، الذي بثّ في تفسيره روح العصر، وصاغه في قالبٍ يجمع بين أصالة التراث ونَفَس البلاغة، مع عمق النظر، وسعة الأفق، وإحكام المنهج، وأشرقت في تفسيره دقّةُ التحليل، وتألق فيه نورُ التدبّر الحرّ، حتى غدا لسانًا معبّرًا عن منهج المدرسة المقارنة بحقٍّ وإنصاف .

وقد التزمتنا في هذا البحث أن أجمع بين إخلاص القصد، والتجرّد في النظر، وتحري العدل في المقارنة، واستقصاء دقائق العلم، مع مراعاة الأدب مع أئمة الأمة وأعلامها، إيمانًا منا بأن علم

التفسير قبل أن يكون ميدانًا للتحليل والبيان، هو بابٌ من أبواب القربى إلى الله تعالى، ومجالٌ من مجالات التعبّد بكلامه.

وأسأل الله الكريم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، مقبولًا عنده، نافعًا لعباده، وأن يدّخره لي ذخرًا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم .

فكانت خطة بحثنا كما تلي:

المبحث الاول: التعريف بالإمامين.

المبحث الثاني: منهج الامامين في تفسيرهما .

المبحث الثالث: صيخ الترجيح في تفسيرهما دراسة مقارنة .

وختاماً أسال الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، ويتقبل منا هذا العمل، ويجعله في صحائف أعمالنا جميعاً، إنه سميع مجيب الدعاء .

المبحث الاول: التعريف بالإمامين

المطلب الأول: حياة الإمام الطبري

أولاً: اسمه ونسبه: هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، وقيل: ابن غالب[١]. الطبري[٢]، وينسب إلى امل وهي البلدة التي ولد فيها، والبغدادي نسبة إلى بغداد التي استوطنها ونشر علمه فيها ومات ودفن بها، وهو أحد ابرز المؤرخين والمفسرين والفقهاء في التاريخ الإسلامي .

ثانياً: لقبه وكنيته: كنيته: أبو جعفر، وهذا اللقب هو الكنية التي تستخدم للإشارة إليه في العديد من الكتب والمصادر التاريخية ولقب: الإمام المفسر، المؤرخ، المجتهد، أحد اعلام الإسلام في القرن الثالث الهجري.

ثالثاً: صفاته: أنه كان أسمر اللون، أعين[٣]، نحيف الجسم، طويل القامة فصيح اللسان [٤].

رابعاً ولادته ونشأته: وُلد الإمام محمد بن جرير الطبري سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة [٥]، وقيل: سنة خمسٍ وعشرين ومائتين [٦] وكانت ولادته في مدينة آمل بطبرستان[٧] . نشأ بها في أول أمره، ثم ارتحل إلى بغداد فاستوطنها، وأقام فيها إلى أن تُوفّي[٨].

---

(١) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، ٢ / ٢١٢.

(٢) الطَّبري: بفتح الطاء المهملة والباء المنقوطة بواحدة، وهذه نسبة إلى طبرستان، وهي إقليم واسع، وأمل أكبر مدنه، وتقع غربي جيحون في طريق بخاري من مرو . يُنظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفي الدين عبد المؤمن القطيعي، ١ / ٦ ؛ الأنساب، للسمعاني ٣٩ / ٩.

(٣) يُوصف بسعة العين . ينظر: العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ٢٥٥ / ٢.

(٤) في ترجمة محمد بن جرير الطبري يُنظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي، ٢١٥ / ١٣.، معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ٢٤٤ / ١٨.، تاريخ الإسلام، للذهبي ٧ / ١٦.، تذكرة الحفاظ، للذهبي ٢٠١ / ٢.، سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٢٦٧ / ١٤. .، ميزان الاعتدال، للذهبي، ٤٩٨ / ٣.، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي، ١٥٠، ١.، لسان الميزان، لابن حجر .

(٥) البداية والنهاية، لأبن كثير: ١٤ / ٨٤٦، تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢ / ٢٠١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبن العماد الحنبلي: ١ / ٢٩.، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لعبد الله بن أسعد اليافعي: ٢ / ١٩٥، إنباه الرواة على أنباء النحاة، جمال الدين القفطي: ٣ / ٨٩.

(٦) لسان الميزان، لأبن حجر العسقاني: ٥ / ١٠٢.

(٧) طبرستان: مدينة في إعمال خراسان، مملكة عظيمة، وهي بلاد كثيرة الحصون، منيعة بالأدوية، وأهلها أشراف العجم، وأبناء ملوكهم، يُنظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٤ / ١٣.

(٨) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ٢ / ٥٤٨، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ١٣ / ٢١٥.

خامساً: طلبه للعلم: كان الإمام الطبري شغوفًا بطلب العلم، متعطشًا للتحصيل، متنقلاً من بلد إلى آخر لينهل من شيوخه ويسجل معارفه في كتبه منذ صغره، حتى أتيح له بعد بلوغه السفر[١] بحرية بتشجيع من أبيه .

حياته العلمية:

أولا: عقيدته: كان الإمام محمد بن جرير الطبري على معتقد السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، وهو معتقد أهل السنة والجماعة، ويُعدّ رحمه الله من كبار أئمة هذا المنهج وأعلامه . وقد بسط تقرير عقيدته في مصنفاته، فأحكم تأصيلها، وأقام الأدلة على صحتها، وذبّ عنها، وتصدّى بالرد على مخالفيها[٢]، نصرةً للحق وبياناً له ومن أوضح الأمثلة على عقيدة الإمام الطبري في تفسيره ما يتعلق بإثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وهي من مسائل العقيدة المشهورة عند أهل السنة عند تفسير قوله تعالى﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[٣] ذكر الإمام الطبري أن معنى الآية: النظر إلى الله تعالى بالأبصار يوم القيامة، ورد الأقوال التي صرفت النظر إلى معنى الانتظار [٤].

ثانياً: مذهبه: كان الإمام محمد بن جرير الطبري في مطلع طلبه للعلم على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ثم ارتقى إلى رتبة الاجتهاد المطلق، فاستقلَّ باختياراته الفقهية وأصوله النظرية، حتى عُدَّ صاحبَ مذهبٍ قائمٍ بذاته، وعُرف أتباعه بالجريرية نسبةً إليه . وقد أشار إليه العبادي[٥] في طبقات الشافعية، وذكره في عدادهم، قائلاً: هو من أفراد علمائنا، مبينًا أن إدراجه في هذا القسم لا ينفي استقلاله، بل يقتضي التنبيه إلى أنه وإن انتسب ابتداءً إلى الشافعية، فقد صار له مذهبٌ خاصٌ انفرد به، وعُرف به بين أهل العلم[٦]، ومن الامثلة الدالة على مذهبه الفقهي ما رجحه الإمام الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[٧]، إذ فسر الملامسة بأنها

(١) تذكرة الحفاظ: ٢ / ٢٠٣، طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي: ٣ / ١٢٠.
(٢) ينظر: منهج الإمام ابن جرير الطبري في الترجيح بين الأقوال التفسيرية، حسين علي الحربي: ص٦١.
(٣) سورة القيامة: الآية (٢٢ ٢٣).
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري: ٢٤ / ٦٠٦٥.
(٥) محمد بن أحمد بن محمد العبادي الهروي، وهو فقيه ومؤرخ وقاضٍ سني شافعي، من ابرز أعلام عصره، ولد في مدينة هراة سنة (٣٧٥هـ ٤٥٨هـ) .
(٦) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي: ١٤ / ٢٧٠.
(٧) سورة النساء: الآية (٤٣).

تعني الجماع لا مجرد اللمس، وبذلك لا ينتقض الوضوء إلا بالجماع [١].

ثالثاً: شيوخه: تلقى الإمام بن جرير العلم عن عددٍ وافرٍ من شيوخ الأمصار، فحدّث عن جماعةٍ من علماء العراق والشام ومصر وغيرها من الحواضر العلمية التي ازدهرت فيها حركة الرواية والدراية آنذاك . وقد حفظت كتبُ التراجم أسماء طائفةٍ من مشيخته منهم: محمد بن مالك بن أبي الشوارب، وإسماعيل بن موسى السّدّي، وإسحاق بن أبي إسرائيل، ومحمد بن أبي معشر، إلى جانب غيرهم[٢] من الأئمة الذين أسهموا في تكوينه العلمي وترسيخ ملكته في التفسير والحديث والفقه .

رابعاً: تلاميذه: كان الإمام محمد بن جرير الطبري أبو جعفر علَماً في الفقه والتفسير، ومرجعاً في علوم القرآن، فتنافس طلاب العلم في الأخذ عنه، والانتساب إلى حلقته، والتتلمذ على يديه ؛ لما عرفوا فيه سعة الرواية، ودقة الدراية، وقوة الاستنباط . وقد حفظت كتب التراجم أسماء عددٍ من تلامذته الذين نهلوا من علمه، من بينهم: أبو جعفر الأنماطي المعروف بابن مالج[٣]، وعبد الله بن الحسن الحَراني[٤]، ومحمد بن أحمد بن عمر الداجوني[٥] ، والقاضي أبو محمد ابن زَبر[٦]، وأحمد بن الفضل بن العباس البهراني [٧].

خامساً: تصانيفه: منذ أن تفتّحت عينا الإمام محمد بن جرير الطبري على نور الحياة، وبدا عليه مخايلُ الذكاء المبكر، اتجهت همتّه إلى طلب العلم، فشبَّ مولعاً به، متوغِّلاً في دقائقه حريصاً على تحصيل فنونه ‘ حتى وهو في سنٍّ مبكرة . ثم ما لبث أن اشتدّ عوده، ورسخت قدمه في ميادين المعرفة، فبلغ رتبة الإمامة، وتمكّن من أدوات الاجتهاد، وأحاط بطائفة واسعة

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري: ٥ / ٦٨٧٢.
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبن العماد الحنبلي: ١ / ٣٠.
(٣) هو: محمد بن معاوية بن يزيد، يكنى أبو جعفر، الأنماطي، توفي سنة ٢٥١هـ، تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ٤ / ٤٤٤.
(٤) هو: عبد الله بن الحسن بن أحمد، يكنى أبو الشعيب، الحراني، توفي سنة ٢٩٥هـ، تاريخ الإسلام، للذهبي: ٦ / ٩٦٣.
(٥) هو: محمد بن أحمد بن عمر، الرملي، الضرير، يكنى أبو بكر، الداجوني الكبير، توفي سنة ٣٢٤هـ، تاريخ الإسلام للذهبي، ٧ / ٤٩٩.
(٦) هو: عبد الله بن أحمد بن زبر، الربعي، يكنى أبو محمد، توفي سنة ٣٢٩هـ، تاريخ الإسلام ن للذهبي ٧ / ٥٧٥.
(٧) هو: أحمد بن الفضل بن العباس، يكنى أبو بكر، البهراني، الدينوري، توفي سنة ٣٤٩هـ، تاريخ دمشق، لأبن عساكر: ٥ / ١٦٤.

من علوم الشريعة وغيرها . ولمّا استكملت شخصيته العلمية مقوماتها، انبرى إلى التأليف، فخلف تراثاً علمياً متنوعاً شمل التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، والقراءات، وغيرها من الفنون . وقد ذاع صيتُ بعض مصنفاته حتى غدت مراجع لا يُستغنى عنها، في حين لم يصل إلينا بعضُها الآخر أو لم يحظ بالانتشار ذاته . وقد اعتنى تلميذه أبو محمد الفرغاني(١) ببيان ما أتمّه شيخه من المصنفات وما لم يتمّه، فذكر أن من الكتب التي تمّت له: كتاب التفسير(٢)، وكتاب التاريخ(٣) إلى عصره، وكتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وكتاب القراءات وتنزيل القرآن، وكتاب اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، وكتاب الخفيف في أحكام شرائع الإسلام .

سادسا: وفاته: تعددت الروايات واختلفت الأقوال في تحديد وقت وفاة الإمام ومكان دفنه؛ إذ ذُكر أنه توفي وقت المغرب من عشية يوم الأحد(٤)، وقيل: بل كانت وفاته عشية يوم السبت(٥) لليلتين بقيتا من شهر شوال، واتفقت بعض الروايات في آخر ما بقي من شهر شوال(٦) سنة عشر وثلاثمئة للهجرة، وقد ناهز عمره آنذاك أكثر من ثمانين سنة بخمسة أو ست سنين . ووصف بأنه كان لا يزال يحتفظ بكثرة السواد في شعر رأسه ولحيته(٧) . أما دفنه فقد قيل: إنه دُفن نهار يوم الاثنين(٨) بعد أن ارتفع النهار، وقيل: بل دُفن ليلاً(٩) . واختلفت الأخبار كذلك في موضع دفنه

(١) هو: عبد الله بن أحمد بن جعفر، أبو محمد، الفرغاني، توفي سنة ٣٦٢هـ، تاريخ الإسلام، للذهبي: ٨ / ٢٠٣.

(٢) وهو أشهر كتب الطبري، وهو كتاب مطبوع، طبع في ثلاثين جزءاً أولا بالمطبعة الأميرية للولاق سنة ١٣٢١هـ، وطبع عدة طبعات بعدها وصور كذلك عدة مرات، ثم حققه المحدث أحمد شاكر وطبع منه ست عشر مجلداً إلى نصف الكتاب تقريباً ولم يُتمه . ينظر: إمام المفسرين والمحدثين والمؤرخين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري «سيرته وعقيدته ومؤلفاته»، علي بن عبد العزيز الشبل: ص٩٦.

(٣) وهو المسمى ب: «تاريخ الرسل والملوك»، وطُبع هذا الكتاب عدة طبعات أولها طبعة جماعة من المستشرقين سنة ١٨٧٩هـ، وطبع في مصر عدة طبعات، ولكن الطبعات الصادرة للكتاب كانت مختلفة الأحجام بالنسبة لمجلدات الكتاب، آخر طبعاته العلمية المعتمدة التي صدرت بتحقيق وضبط المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وقد اعتمد في تحقيقه على خمس عشرة نسخة مخطوطة . يُنظر: المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

(٤) البداية والنهاية، لابن كثير: ١٤ / ٨٤٨، طبقات الفقهاء، للشيرازي: ١ / ٩٣.

(٥) البداية والنهاية، لابن كثير: ١٤ / ٨٤٨، المحمدون من الشعراء وأشعارهم، جمال الدين القطفي: ١ / ١٨٩.

(٦) تاريخ ابن يونس المصري: ٢ / ١٩٦.

(٧) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٢ / ٥٤٨، البداية والنهاية، لابن كثير: ١٤ / ٨٤٨.

(٨) تاريخ دمشق، لابن عساكر: ٢٢ / ٦٢.

(٩) الكامل في التاريخ، لعز الدين ابن الاثير: ٦ / ٦٧٧.

؛ فذكر بعضهم أنه دُفن برحبة يعقوب في ناحية باب خراسان في حجرة بإزاء دارد[١] هناك، بينما ذهب آخرون إلى أنه دُفن في داره[٢] رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه الله عنا خيراً .

المطلب الثاني: حياة الإمام ابن عاشور

أولاً: اسمه ونسبه: هو محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور، وينتمي إلى أسرة علمية عريقة من الأشراف الأندلسيين الذين استقروا في بلاد المغرب بعد خروجهم من الأندلس، حفاظاً على دينهم إثر ما تعرض له المسلمون هناك من اضطهاد وتنصير . وقد استقر بعض أفراد أسرته في تونس منذ القرن الحادي عشر الهجري، حيث قدم جده الأعلى إلى تونس سنة ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م[٣].

ثانياً: ألقابه: عُرف الإمام ابن عاشور بعدة ألقاب علمية تدل على مكانته بين علماء عصره، ومن أشهرها: الإمام، والعلم، والعلامة، والهمام، وهي ألقاب تعكس ما حظي به من تقدير علمي ومكانة رفيعة في ميادين العلم والمعرفة .

ثالثاً: كنيته: كنيته أبو محمد وهي نسبة إلى اكبر أبنائه محمد، وهي كنية درج عليها العلماء في التعريف بهم في المصنفات والتراجم .

رابعاً: مولده: ولد الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تونس سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م[٤]، في أسرة عُرفت بالعلم والفضل . وقد تكفّل بتربيته منذ صغره جدّه لأمه الشيخ محمد العزيز بوعتور[٥]، الذي كان له أثر واضح في توجيهه نحو العلم وتنمية ميوله العلمية .

خامساً: نشأته وطلبه للعلم: نشأ ابن عاشور في بيئة علمية محافظة، فبدأ تعليمه المبكر في الكُتّاب، حيث تعلم القراءة والكتابة وشرع في حفظ القرآن الكريم وهو في السادسة من عمره،

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي: ١٣ / ٢١٧.
(٢) طبقات الفقهاء الشافعية، لابن الصلاح: ١ / ١١١.
(٣) ينظر: سيرة الإمام محمد الطاهر بن عاشور، د. جمال محمود أحمد: ص٢، ومسامرات الظريف بحسن التعريف، محمد عثمان السنوسي: ص١٥٣، وشيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، د. بن القاسم القالي: ص٣٥، وشجرة النور الزكية، محمد بن محمد مخلوف: ص٣٩٢.
(٤) ينظر: أعلام تونسيون، للصادق الزمرلي: ص٣٦١.
(٥) هو: محمد العزيز بن محمد بوعتور، ولد سنة: ١٨٢٥م، وتوفي في ١٤ / شباط / ١٩٠٧م، وهو أول وزير أكبر لتونس في عهد الحماية، ينظر: شجرة النور الزكية، محمد مخلوف: ص٤١٩، وعنوان الأريب عمن نشأ بالبلاد التونسية، محمد النفير: ٢ / ١٠٠٧ ١٠١٩، وتراجم الأعلام، محمد الفاضل بن عاشور: ص١٣٩ ١٥١.

حتى أتم حفظه وأتقنه في سن مبكرة . وقد نشأ في وسط علمي وثقافي أسهم في صقل مواهبه وتنمية مداركه، كما تعلم شيئاً من اللغة الفرنسية مما أتيح له في ذلك العصر . والتحق بعد ذلك بجامع الزيتونة[١] سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م، حيث ظهرت عليه علامات النبوغ والذكاء منذ بداياته الدراسية، واستمر تحصيله العلمي بجدٍّ ومثابرة حتى نال شهادة التطويع[٢] سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م[٣]، وهي من أعلى الشهادات العلمية التي كانت تُمنح آنذاك في جامع الزيتونة .

ثانياً: حياته العلمية:

أولاً: عقيدته: يتبيّن من خلال النظر في مؤلفات الإمام الطاهر ابن عاشور أن منهجه في مسائل الاعتقاد يدور في الجملة في إطار ما قرّره السلف الصالح، ولا سيما في القضايا المتصلة بباب الأسماء والصفات . غير أن معالجته بمنهج النصوص العقدية تكشف عن تأثره في مواضع بمنهج المدرسة الأشعرية، وهو أمر يمكن تفسيره بطبيعة تكوينه العلمي وما تلقّاه من دراسة لعدد من المؤلفات المعتمدة عند الأشاعرة، مثل كتاب الوسطى والعقائد النسفية والواقف . ومع ذلك فإن هذا التأثر لم يجعله منحصراً في اتجاه واحد، إذ يظهر في بعض مواقفه ميل واضح إلى مقاربة منهج السلف في فهم نصوص الصفات وإثباتها . وعند تناوله لآيات الصفات في تفسيره يحرص على استحضار ما ورد عن السلف من أقوال وتوجيهات، فيعرضها عرضاً علمياً ويبيّن دلالاتها، وقد يرجّحها في بعض المواضع إذا رأى قوة دلالتها وموافقتها للسياق . وإذا اختار في موضع ما اتجاهاً تأويلياً يخالف ما نُقل عنهم، فإنه لا يعمد إلى التشديد في نقدهم، بل يذكر آراءهم مقرونة بالتقدير والإجلال، ويحرص على الاعتذار لهم وبيان وجه اجتهادهم، في أسلوب يتسم بالإنصاف والاعتدال، بعيداً عن التعنيف أو الانتقاص . وهو ما يعكس سعة أفقه العلمي

(١) جامع الزيتونة: أمر ببنائه حسان بن النعمان عام ٧٩هـ، وقام عبيد الله بن الحبحاب بإتمام عمارته في عام: ١١٦هـ، وسمي بجامع الزيتونة: قال ابن الشباط: وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا هذه تونس، ينظر: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، لابن دينار: ص ٨، ومسامرات الظريف في حسن التعريف، محمد السنوسي: ص ١٣٥ ١٤٧.

(٢) تعطى هذه الشهادة بعد امتحان التطويع وكان امتحان التطويع من سنة ١٢٩٢إلى ١٣١٦ عبارة عن إلقاء درس واحد في كتاب يختاره التلميذ من الكتب التي له فيها دروس، والمشايخ والنظار يعينون له موضعاً منه، ويعطونه ثمانية أيام لمطالعته وإلقائه، وإذا أحسن إلقاءه رُخّص له الإقراء في الجامع الاعظم .ينظر: جامع الزيتونة المعلم ورجاله، محمد ابن عاشور: ص١١٥.

(٣) التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، للأستاذ الدكتور فضل حسن عبّاس: ٣ / ٢٩٥.

وحرصه على الجمع بين احترام تراث السلف وممارسة النظر والاجتهاد في فهم النص القرآني، ومما يلحظ في منهجه كذلك أنه قد يسلك في تفسير الصفة الواحدة أكثر من مسلك ؛ فتارة يميل إلى ما درج عليه أهل التأويل، وتارة أخرى يوافق ما نُقل عن السلف[١] في إثباتها، الأمر الذي يعكس طابعاً اجتهادياً في معالجته للنصوص، ويكشف عن سعة نظره ومحاولته التوفيق بين ما استقر عليه التراث التفسيري وما يراه أقرب إلى الدلالة والسياق والشاهد العقدي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[٢]، يقرر ابن عاشور أن الآية تعد أصلاً في تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وأن صفاته سبحانه تثبت على وجه يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف[٣] .

ثانياً: مذهبه الفقهي: يُعد الإمام ابن عاشور من الفقهاء البارزين في عصره، ومن العلماء الذين اتجهوا إلى روح التجديد ونبذ الجمود في النظر الفقهي . فقد كان ينتقد الاقتصار على التقليد والتعصب لآراء المتقدمين، ويرى أن استسلام المسلمين لهذا النمط من التفكير يؤدي إلى بالاستدلال ؛ فكان يحرص على بناء آرائه على ما تدل عليه النصوص الشرعية، أو ما يسوغه النظر الفقهي من القياس والاجتهاد . ومع ذلك لم يهمل تراث العلماء السابقين، بل كان يعرض أقوالهم ويستفيد منها مع وضعها في موضعها اللائق من الاعتبار العلمي. وعلى الرغم من نزوعه الاجتهادي، فقد كان اهتمامه واضحاً بالمذهب المالكي[٤]، وهو أمر طبيعي بحكم البيئة العلمية التي نشأ فيها، حيث كان هذا المذهب هو الغالب بين علماء بلده، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٥]، يتضح من تفسير ابن عاشور لآية الاستواء انه يذهب إلى تفسيرها بمعنى التصرف والملك والتدبير، اعتماداً على الدلالة اللغوية مع مراعاة أصل التنزيه، مما يعكس منهجه في التعامل مع آيات الصفات القائم على التأويل المنضبط .

ثالثاً: شيوخه وتكوينه العلمي: تلقى الإمام محمد الطاهر ابن عاشور تعليمه على أيدي عدد من كبار علماء جامع الزيتونة، الامر الذي اسهم في تكوين شخصيته العلمية وصقل ملكاته

(١) ينظر: قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، عبير بنت عبد الله النعيم: ص٤٠.
(٢) سورة الشورى: الآية (١١).
(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: ٢٥ / ٤٨٤.
(٤) ينظر: قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، عبير بنت عبد الله النعيم: ص٣٩.
(٥) سورة طه: الآية (٥).

المعرفية . وقد أتاحت له هذه الدراسة تحصيلاً علمياً واسعاً شمل عدداً من العلوم الشرعية واللغوية، مثل التفسير، والحديث، والقراءات، ومصطلح الحديث، إلى جانب علوم اللغة العربية من نحو وبلاغة وبيان، فضلاً عن اهتمامه بالتاريخ والنطق . وقد انعكس هذا التكوين المتنوع في شخصيته العلمية التي اتسمت بطابع موسوعي يجمع بين عمق المعرفة وسعة الاطلاع . ومن أبرز شيوخه سالم أبو حاجب[١] الذي تلقّى عنه في المرحلة العالية عدداً من كتب الحديث، مثل شروح صحيح البخاري والموطأ، وقد منحه إجازة علمية عامة سنة ١٣٢٣هـ[٢] . كما أخذ العلم عن عدد من علماء عصره، منهم: مصطفى رضوان السوسي[٣]، وأحمد جمال الدين الفقيه[٤]، ومحمد العزيز بوعتور[٥]، ومحمد بن عثمان النجار[٦]، وكان لهؤلاء الشيوخ أثر واضح في تكوينه العلمي واتساع المعرفة .وقد عُرف ابن عاشور بسعة علمه وغزارة إنتاجه، مع ما اتصف به من حسن الخلق والتواضع، فلم تحمله كثرة معارفه على الكِبر أو التعالي . وقد أثنى عليه معاصروه، ومنهم العلامة محمد الخضر حسين الذي أشار إلى ما تميز به من قوة في البيان، وفصاحة في التعبير، وسعة اطلاع في علوم اللغة وآدابها، إلى جانب رسوخ علمه وقوة نظره، مما جعله من أبرز علماء عصره .

(١) هو: الشيخ سالم بن عمر بن سالم بو حاجب، كان من أعلام عصره فهو فقيه محقق، لغوي أديب شاعر، له يد الطولى في المعقولات ملمّ بطرف من التاريخ والجغرافيا والرياضيات، واسع الأفق، غزير الذكاء، ناقد مصيب، ومصلح إسلامي، كان قاضياً وإماماً تونسياً، (ت: ١٨٢٨هـ / ١٩٢٤م)، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٢ / ٧٧.

(٢) ينظر: شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم، محمد الحبيب بن الخوجة: ص١٠١٢.

(٣) هو: الشيخ مصطفى رضوان السوسي، ولد بمدينة سوسة، سنة ١٢٤٤هـ، من أسرة منحدرة من الجنود الأتراك، عُيّن عضوا في مجلس تنظيم الدروس بجامع الزيتونة، توفي سنة ١٣٢٢هـ، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٢ / ٣٦٥.

(٤) هو: الشيخ أحمد جمال الدين الفقيه، ولد ببني خيار، وتلقى العلم بجامع الزيتونة، ودرّس به، كان من أبرز تلامذته الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، توفي بعد سنة ١٣٢٣هـ، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٢ / ٥٠.

(٥) هو: الشيخ محمد العزيز بن محمد الحبيب ابن الوزير محمد بو عتور، ولد سنة ١٢٤٠هـ في تونس، وكان من أهل العلم البارزين، له آراؤه المستقلة، توفي سنة ١٣٢٥هـ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف: ص ٤١٩.

(٦) هو: الشيخ محمد بن عثمان النجار، أبو عبد الله ولد سنة ١٢٥٥ هـ، بتونس، وتولى منصب الإفتاء سنة ١٣١٢هـ، وكان يجمع بين الفتوى والتدريس بجامع الزيتونة، حتى توفي سنة ١٣٣١هـ، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٥ / ١٦، وشجرة النور الزكية، محمد مخلوف: ص٤٢١.

رابعاً: تلامذته: تخرّج على يد الإمام محمد الطاهر بن عاشور عددٌ كبير من طلبة العلم الذين قصدوا حلقاته العلمية في جامعة الزيتونة، حيث أفادوا من دروسه واطّلعوا على طائفة من أمهات الكتب في العلوم الشرعية واللغوية . وقد كان لجهوده في التدريس والتكوين العلمي أثرٌ واضح في إعداد جيلٍ من العلماء والمصلحين الذين أسهموا في نشر العلم وخدمة الفكر الإسلامي في عصرهم .

ومن أبرز من تتلمذ عليه: محمد الصادق بن الحاج محمد المعروف (بسيس)[١]، ومحمد الصَّادق الشطّي[٢]، وأبو الحسن ابن شعبان[٣]، والشيخ عبد الحميد بن باديس[٤]، والشيخ زين العابدين بن حسين[٥] .

خامساً: اتسم النتاج العلمي للإمام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله بالوفرة والتنوع، إذ لم يقتصر عطاؤه العلمي على فنٍ واحد، بل امتد ليشمل عدداً من ميادين المعرفة الإسلامية والإنسانية . فقد ترك مؤلفات متعددة في التفسير والحديث والفقه وأصوله، فضلاً عن الأدب والنقد والتاريخ، مما يعكس سعة اطلاعه وعمق ثقافته . ففي علم التفسير يأتي في مقدمة آثاره تفسيره المشهور التحرير والتنوير، وهو الاسم المختصر للعنوان الذي وضعه له المؤلف، وهو «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد[٦]»، ويعد من أبرز التفاسير المعاصرة التي امتازت بالتحليل اللغوي والبياني والنظر المقاصدي .

(١) هو: الشيخ محمد الصادق بن الحاج محمود بن محمد بسيس، مثقف تونسي وأستاذ بجامع الزيتونة ثم بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، توفي عام: ١٩٧٨م، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين: ١ / ٩٨.

(٢) هو: محمد الصادق بن محمد الشطي الشريف المساكني، الفقيه، الفرضي، وحفظ كثيرا من المتون على المؤدب في الكتاب الذي لبث فيه ثماني سنوات، توفي عام: ١٩٤٥، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٣ / ١٩٦.

(٣) هو أبو الحسن بن شعبان، الأديب الشاعر، ولد بتونس، وهو ينحدر من عائلة صوفية تنتسب للطريقة القادرية، حكى عن نفسه أنه كان يحضر دروس العلامة الإمام الطاهر بن عاشور في الموطأ وهو إذ ذاك شيخ جامع الزيتونة، وشيخ الإسلام المالكي حوالي عام ١٩٣٣، توفي عام: ١٩٦٣م، ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٣ / ١٩٨.

(٤) هو الشيخ عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ولد سنة ١٣٠٨هـ، وهو رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، له كتابات كثيرة جمعها: عمار الطالبي، بعنوان: ابن باديس حياته وآثاره . وهي تقع في اربع مجلدات، توفي سنة ١٣٥٩هـ . ينظر: الأعلام، للزركاني: ٣ / ٢٨٩.

(٥) هو الشيخ زين العابدين بن حسين، ولد بتونس سنة ١٣١٧هـ، تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ: ٢ / ١٣٦.

(٦) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية تونس ١٩٨٤هـ، ص١.

أما في علم الحديث فمن مؤلفاته: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، وكتاب النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح . وفي الفقه وأصوله صنف عدداً من الكتب، من أبرزها: حاشية عل التنقيح للقرافي وسماها توضيح وتصحيح، وكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية الذي يعد من أهم المصنفات المعاصرة في بيان نظرية المقاصد، فضلاً عن كتابي تحقيقات وأنظار والوقف وأثره في الإسلام[١] . كما كان له اهتمام واضح بمجال الأدب والنقد، فكتب في هذا الباب عدة مؤلفات، منها: أصول الإنشاء والخطابة، وشرح قصيدة الأعشى، وشرح المقدمة الأدبية للمرزوقي، وتحقيق ديوان بشار بن برد، إضافة إلى تحقيق ديوان النابغة الذبياني[٢] . وله كذلك إسهامات في التراجم والتاريخ، من بينها: تراجم بعض الأعلام وكتاب تاريخ العرب[٣] . ومن خلال استعراض هذه المؤلفات يتضح مدى اتساع افق الإمام ابن عاشور العلمي وتعدد اهتماماته المعرفية، إذ تعكس مؤلفاته إحاطة واسعة بمختلف العلوم التي تسهم في معالجة قضايا الفكر الإسلامي وواقع المسلمين .

سادساً: وفاته: بعد مسيرة علمية زاخرة بالعطاء في ميادين التعليم والتأليف وخدمة العلوم الشرعية، انتقل الإمام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى غلى جوار ربه سنة ١٣٩٣هـ الموافق ١٩٧٣م، وذلك في ضاحية المرسى القريبة من العاصمة التونسية . وقد ووري جثمانه الثرى في مقبرة الزلاج[٤]، بعد أن خلف تراثاً علمياً بارزاً وإسهاماتٍ جليلة في خدمة الفكر الإسلامي وعلوم الشريعة .

المبحث الثاني: منهج الامامين في تفسيرهما .

المطلب الاول: التعريف بتفسير الإمام (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

يُعد تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن من أهم كتب التفسير بالمأثور، وقد افتتحه الإمام محمد بن جرير الطبري بمقدمة بيّن فيها منهجه في التفسير، حيث أكد أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولا يمكن تفسيره إلا بالرجوع إلى لغة العرب وأقوال السلف من الصحابة

(١) المصدر نفسه .
(٢) طبقات المفسرين، ص٣٣٨.
(٣) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ل هيا ثامر مفتاح العلي، ص ٧٥٧٨.
(٤) ينظر: الاعلام للزركاني، ٦ / ١٧٤، تراجم المؤلفين التونسيين، ٣ / ٣٠٧.

والتابعين. كما أوضح أنه يعتمد على جمع الروايات الواردة في تفسير الآيات، ثم الترجيح بينها بالدليل، مع التحذير من القول في القرآن بالرأي المجرد دون مستند من أثر أو لغة. وكذلك تفسير الإمام الطبري رحمه الله من أعظم المصنفات التفسيرية في التراث الإسلامي، بل من اجلِّ كتب التفسير وأوثقها على الإطلاق . وقد اتفق علماء التفسير قديماً وحديثاً على عظيم منزلته العلمية، حتى غدا مرجعاً اساسياً لا يستغني عنه طالب العلم عامة، وطالب التفسير على وجه الخصوص . ويرجع ذلك إلى ما تضمنه هذا التفسير من مادة علمية غزيرة، جمع فيها مؤلفه أقوال السلف الصالح في تأويل آيات القرآن الكريم، مقرونةً بأقوال أئمة اللغة والنحو، وما يتصل بها من مسائل الإعراب والقراءات القرآنية، مع عناية ظاهرة بالترجيح بين الأقوال، وبيان الأوجه الراجحة، وتصويب ما يحتاج إلى تصويب أو استدراك . ويُعدّ هذا التفسير أشهر مؤلفات الإمام محمد بن جرير الطبري وأجلّها قدراً، وقد حظي بعناية العلماء والناشرين، فطُبع في طبعات متعددة، وكانت أولى طبعاته بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢١هـ، في ثلاثين جزءاً، ثم تتابعت طبعاته بعد ذلك، كما أُعيد تصويره ونشره مرات عديدة [١]، مما يدل على مكانته العلمية الرفيعة وأثره العميق في مسيرة التفسير إلى يومنا هذا.

أولاً: منهج الإمام الطبري في التفسير: من خلال النظر المتأني في تفسيره، والوقوف على طريقته في تناول النص القرآني، يتجلّى لنا المنهج الذي سار عليه في تفسيره، ويمكن إبراز معالم هذا المنهج فيما يلي:

١. التفسير النقلي (بالمأثور): اعتمد اعتماداً كبيراً على الروايات المأثورة عن الصحابة والتابعين، وكان يوردها بالأسانيد[٢]، مبيناً مصادرها، مما يعكس عنايته بعلم الرواية وتوثيقها.

٢. العناية باللغة والنحو: اهتم ببيان معاني المفردات القرآنية وشرح ما يتعلق بها من القواعد اللغوية والنحوية، كما عرض لآراء[٣] النحويين ومدارسهم، ولا سيما مدرستي البصريين والكوفيين، ذاكراً أقوالهم ومناقشاً إياها.

(١) ينظر: إمام المفسرين والمحدثين والمؤرخين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري «سيرته وعقيدته ومؤلفاته»، علي بن عبد العزيز الشبل: ص٩٦.

(٢) ينظر: تفسيرالطبري على سبيل المثال ص ٣٤٧ / ٤١٩ / ٤٣٨.

(٣) ينظر: الإمام الطبري شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين، ص١٣٠.

٣. الترجيح بين الأقوال: لم يكتفِ بجمع الروايات، بل كان يرجّح بينها وفق معايير علمية، مع بيان أسباب الترجيح وتعليل اختياره(١) .

٤. أسباب النزول: اعتنى بذكر أسباب نزول الآيات والسور لما لها من دور في بيان سياق النص القرآني وفهم معانيه(٢).

٥. المسائل الفقهية: تناول بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من الآيات(٣)، مع عرض أقوال الفقهاء وبيان وجوه الاستلال .

٦. القراءات القرآنية: أورد القراءات المختلفة للآيات، وبيّن أوجه الاختلاف بينها(٤) وما يترتب عليها من دلالات في المعنى .

٧. القصص القرآني: عرض القصص الواردة في القرآن الكريم، مبيناً ما تتضمنه من العبر والدروس التربوية .

كما تناول في مقدمة تفسيره قضايا مهمة تتصل بعلوم القرآن، فتكلم على تأويل القرآن وما يجوز تفسيره وما لا يجوز، وذكر حديث النبي ﷺ في أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، كما بيّن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وردّ على من زعم وجود ألفاظ غير عربية فيه، وتحدث عن اسماء القرآن والسور(٥) . ثم شرع بعد ذلك في تفسير الآيات تفسيراً متسلسلاً، مؤولاً القرآن حرفاً حرفاً، ومستشهداً بأقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، مع عرض آراء النحويين من الكوفيين والبصريين(٦) ومناقشتها. كما يورد الإمام الطبري في جامع البيان الروايات الإسرائيلية في سياق القصص القرآني، إلا أنه لا يعتمدها مطلقاً، بل ينقلها مع الإسناد، مع تعقّب بعضها بالنقد والتمحيص(٧) إذا لم يثبت صحتها. وقد نال كتابه منزلة علمية رفيعة بين كتب التفسير ؛ حتى

(١) ينظر: ترجيحات الطبري في جامع البيان من خلال تفسير العشر الاخير من القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، حنان بنت نور مياه سركار، جامعة المدينة العالمية، ٢٠١٥، ص١٩.
(٢) ينظر: تفسير الطبري: على سبيل المثال سورة الصف الآية ٢٣.
(٣) ينظر: تفسير الطبري: على سبيل المثال الآية ٤ من سورة المجادلة، ٢٢ / ١٣٥.
(٤) ينظر: الإمام الطبري شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين، محمد الزحيلي، ص١٢١١٣٥.
(٥) معجم الادباء، ٦ / ٢٤٥٣.
(٦) المصدر نفسه ،٦ / ٢٤٥٣..
(٧) ترجيحات الطبري في جامع البيان، ص٢٠.

قيل فيه إنه لم يُرَ كتابٌ في التفسير أعظم منه حجماً ولا أكثر فائدة[١] .

ثانياً: القيمة العلمية للتفسير: يُبيّن الدكتور محمد حسين الذهبي[٢] في حديثه عن تفسير محمد بن جرير الطبري، ولا سيما في كتابه التفسير والمفسرون، جملةً من الخصائص العلمية التي امتاز بها تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن، والتي جعلته متفرداً بين كتب التفسير، ومن أبرز تلك الخصائص ما يأتي[٣]:

١ إنكاره التفسير بمجرد الرأي: اتخذ الإمام الطبري موقفاً حازماً من التفسير القائم على الرأي المجرد، فكان شديد النقد لمن يستقل بتفسير القرآن دون مستند من علمٍ صحيح . ولذلك أكّد مراراً على ضرورة الرجوع إلى ما ثبت عن الصحابة والتابعين من أقوال في تفسير القرآن، ومت نُقل عنهم نقلاً صحيحاً مستفيضاً، وعدّ ذلك الميزان الأساس الذي يُعرف به التفسير الصحيح من غيره .

٢ تقديره للإجماع: يتجلى في تفسيره عظيم تقديره لإجماع الأمة، إذ كان يمنح هذا الإجماع مكانة معتبرة عند ترجيحه بين الأقوال التفسيرية، ويجعله من المرجحات المهمة التي يعتمد عليها في اختيار ما يراه أصوب في بيان معنى الآية .

٣ عنايته بالقراءات وتوجيهها: أولى الإمام الطبري عناية واضحة بالقراءات القرآنية، فكان يذكرها ويبيّن ما يترتب عليها من اختلاف المعاني، كما كان يميّز بين القراءات الصحيحة المعتمدة عند أئمة القراء، وبين ما لا يثبت منها . فكثيراً ما يردّ القراءات التي لا تستند إلى أصول معتبرة أو لا يعضدها نقل صحيح، ثم يبيّن بعد ذلك رأيه في القراءة التي يختارها، مسنداً اختياره بالأدلة والاعتبارات العلمية .

٤ الإعراض عمّا لا طائل تحته: ومن السمات البارزة في تفسيره انصرافه عن الخوض في المسائل التي لا يترتب عليها فائدة علمية أو عملية، إذ لم يكن معنيّاً بما اشتغل به بعض المفسرين من التفريعات أو الأخبار التي لا تعود على فهم النص القرآني بجدوى حقيقية .

(١) انباه الرواة على انباه النحاة: ٣ / ٨٩.

(٢) هو الدكتور محمد حسين الذهبي عالم أزهري، ومفسر جليل، ووزير أوقاف مصري سابق، ولد عام ١٩١٥م وتوفي ١٩٧٧م وابرز مؤلفاته التفسير والمفسرون .

(٣) التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي: ١ / ١٤٩.

٥. حاكمية اللغة في تفسيره: اعتمد الإمام الطبري اللغة العربية أصلاً مهماً في تفسيره، فجعل الاستعمالات اللغوية إلى جانب الروايات المأثورة مرجعاً موثوقاً في بيان معاني الألفاظ والعبارات القرآنية . ومن مظاهر ذلك اعتماده الواسع على الشعر العربي القديم، واستحضاره للشواهد اللغوية، فضلاً عن عنايته بالتوجيه النحوي لكثير من التراكيب والأساليب القرآنية، وترجيحه بعض الأقوال على بعض في ضوء القواعد اللغوية المعتبرة .

٦. معالجته للأحكام الفقهية: لم يخلُ من تناول المسائل الفقهية التي تتضمنها الآيات، حيث يعرض أقوال الفقهاء ومذاهبهم، ويوازن بينها، ثم ينتهي إلى اختيار ما يراه راجحاً، مستنداً في ذلك إلى الأدلة العلمية والحجج المعتبرة .

٧. تناوله لبعض مسائل علم الكلام: كما يظهر في تفسيره تعرضه لبعض القضايا الكلامية عند تفسير عدد من الآيات، مما يدل على رسوخ قدمه في مسائل العقيدة . فقد كان يطبّق أصول الاعتقاد على الآيات تطبيقاً علمياً، ويناقش الآراء الكلامية مناقشة واعية، وقد بدا واضحاً في مجمل مواقفه مرافقته لأهل السنة والجماعة، ويتجلى ذلك في ردوده على بعض الفرق، ومن ذلك مناقشته للقدرية في مسألة الاختيار . وبعد عرض هذه السمات، يشير الدكتور محمد حسين الذهبي إلى السر في علوّ مكانة هذا التفسير بين كتب التفسير، مبيناً أن كتاب جامع البيان يُعدّ المرجع الأول والأبرز في التفسير بالمأثور، وهي ميزة لم يحظ بها كتاب آخر من كتب التفسير الروائي بمثل ما حظي به هذا التفسير من شمول ودقة واعتماد .

ثالثاً: مصادر تفسيره .

يُعَدُّ تفسير الطبري جامع البيان من المصنفات التفسيرية الكبرى التي بُنيت على أسس علمية راسخة وتنوّعت مصادرها بين الرواية والدراية . وقد استهلّ الإمام الطبري كتابه بمقدمة علمية نفيسة تضمّنت خطبةً بليغةً ورسالةً في أصول التفسير، بيّن فيها ما خصّ الله تعالى به القرآن الكريم من وجوه البلاغة والإعجاز والفصاحة، وما امتاز به من سموّ البيان ورفعة الأسلوب . ثم عرض لجملة من المباحث التمهيدية التي تُعَدّ من مقدمات علم التفسير، فتكلم على مفهوم التأويل وما يتعلق بمعرفة تأويل القرآن، وبيّن ما يجوز تفسيره وما لا يُدرك تأويله إلا بعلمٍ خاص، كما تناول الحديث الوارد في نزول القرآن على سبعة أحرف، وناقش الأقوال الواردة في بيانها، وردّ على من زعم اشتمال القرآن على ألفاظ غير عربية، وفسّر أسماء القرآن والسور، إلى جانب مسائل أخرى تتصل بأصول التفسير . ثم شرع بعد هذه المقدمات في تفسير القرآن آيةً آية، مستنداً في

ذلك غلى ما ورد عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، مع الاستفادة من أقوال أئمة اللغة والنحو من مدرستي الكوفة والبصرة، وذكر القراءات القرآنية وبيان اختلافها، وما يترتب عليها من دلالات في المعنى . كما تناول تفسيره مباحث لغوية متعددة كالمصادر وصيغ الجمع والتثنية والاشتقاق، فضلاً عن تعرضه لمسائل الناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، ووجوه الاختلاف الفقهي فيها، مع مناقشة ما أُثير حول بعض الآيات من قضايا كلامية، والرد على أصحاب البدع بما يوافق منهج أهل السنة . وقد اعتمد الطبري في تفسيره على جملة واسعة من مصادر التفسير بالمأثور، فنقل عن طرق متعددة عن عبد الله بن عباس، كما روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دعامة، والحسن البصري، وعكرمة مولى ابن عباس، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من أئمة التفسير من السلف . كما ضمّ كتابه قدراً وافراً من الأحاديث المسندة التي يوردها بحسب الحاجة إليها في بيان المعنى . ومع سعة مصادره، تحرّى الإمام الطبري الدقة في النقل، فلم يُدخل في تفسيره الروايات التي لا يعتمد عليها، فترك الرواية عن بعض المفسرين الذين طُعن في عدالتهم أو ضبطهم، مكتفياً بالمصادر الموثوقة عن أهل العلم . وفي المقابل استفاد من بعض كتب اللغة والمعاني عند الحاجة، مثل مؤلفات يحيى بن زياد الفراء[1]، وأبو الحسن الأخفش[2]، وغيرهم من أئمة العربية، إذ كانوا المرجع في بيان المعاني والإعراب . وبذلك جاء تفسيره موسوعة علمية واسعة تجمع بين التفسير بالمأثور والتحليل اللغوي والنظر العلمي، حتى قُدّر حجم الكتاب بحو عشرة آلاف ورقة تقريباً، بحسب اختلاف حجم الخط[3]، وهو ما يدل على غزارة مادته وسعة معارف مؤلفه.

(١) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكريا، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، كما يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، ولد بالكوفة سنة (١٤٤هـ)، وانتقل إلى بغداد، ثم قصد مكة وتوفي في الطريق، سنة (٢٠٧هـ)، وله مصنفات كثيرة منها معاني القرآن . ينظر: الأعلام، للزركاني: ٨ / ١٤٥.

(٢) هو: سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط نحوي عالم باللغة والأدب من أهل بلخ، سكن البصرة وأخذ العربية من سيبويه، توفي سنة (٢١٥هـ)، وله تصانيف منها: تفسير معاني القرآن . ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢ / ٣٨٠، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لليافعي: ٢ / ٤٦.

(٣) معجم الأدباء، لياقوت الحموي: ٦ / ٢٤٥٣ ٢٤٥٤.

رابعاً: المآخذ على تفسيره:

الإمام الطبري رحمه الله ليس معصوما من الخطأ، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب النبوة، ولذلك لم يسلم تفسير الطبري من النقد، وكشف الأخطاء التي وقع فيه ويمكن إجمالها فيما يلي:

١. الإكثار من الروايات والإسرائيليات يروي الطبري أخبار بني إسرائيل في القصص دون تشدد دائم في تنقيحها، لأنه يعتمد منهج الجمع بالأسانيد[١] .

٢. تغليب التفسير بالمأثور وقلة التحليل العقلي يعتمد بشكل اساسي على أقوال الصحابة والتابعين مع قلة التوسع التحليلي أو المقاصدي مقارنة بتفاسير لاحقة [٢] .

٣. إيراد بعض الروايات الضعيفة أو غير المشهورة بسبب اعتماده على الأسانيد، قد يذكر روايات ضعيفة ثم يترك للقارئ أو للنقد العلمي التمييز بينها[٣] .

ويبقى تفسير الطبري ثروة عظيمة، وذخيرة من ذخائر الإسلام، ومصدراً أصيلا لكل مفسر وعالم مجتهد، ومرجعا مهما في جميع العلوم اللغوية والعلوم الشرعية من علوم القرآن .

المطلب الثاني: التعريف بتفسير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) .

أولاً: التعريف بتفسير التحرير والتنوير وسبب تسميته وعدد أجزائه ومحتوى مقدمته: يُعدُّ تفسير التحرير والتنوير من أشهر التفاسير المعاصرة، ألَّفه الإمام محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، وقد أفنى في تأليفه سنوات طويلة، فخرج موسوعة تفسيرية متميزة جمعت بين أصالة التفسير المأثور وعمق النظر العقلي واللغوي والبلاغي. ويُعرف التفسير باسم التحرير والتنوير، وهو اختصار لاسمه الكامل: «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». وسمّى ابن عاشور تفسيره بهذا الاسم؛ لأنه قصد إلى تحرير المعاني التفسيرية من التقليد والآراء التي لا يسندها دليل، وتنوير عقول القرّاء بما يكشفه القرآن الكريم من هدايات ومعارف وأسرار بلاغية وتشريعية، فجاء عنوان الكتاب معبِّراً عن غايته ومنهجه في التفسير. ويقع التفسير في ثلاثين

(١) المنهجية النقدية في تفسير الطبري، مجلة الفرائد في البحوث الإسلامية، سعد الأحمد (٢٠١٩).
(٢) دراسة مقارنة في المنهج الأثري في التفسير ،الطبري وابن كثير جامعة IIUM.
(٣) مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية (نماذج استدراكات على الطبري).

جزءاً، ويُعد من أوسع التفاسير المعاصرة وأكثرها عناية بالتحليل اللغوي والبلاغي والمقاصدي، مما جعله مرجعاً مهماً للباحثين في الدراسات القرآنية والتفسيرية. أما مقدمة التفسير فتُعدُّ من أهم المقدمات العلمية في كتب التفسير؛ إذ اشتملت على مباحث متعددة تتعلق بعلوم القرآن وأصول التفسير، وبيان منزلة التفسير وأهميته، وحاجة الأمة إلى تجديد النظر في فهم القرآن الكريم، كما تناولت موضوعات الوحي، وأسباب النزول، والقراءات، وإعجاز القرآن، واللغة العربية، وطرائق المفسرين، إضافة إلى القواعد والأسس التي اعتمدها المؤلف في تفسيره، مما يجعلها مدخلاً أساسياً لفهم الكتاب ومنهج مؤلفه.

ثانيا: منهج الإمام ابن عاشور في تفسيره: يقوم منهج الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير على جعل القرآن الكريم الأصل الأول في بيان معانيه ؛ إذ يعتمد مبدأ تفسير القرآن بالقرآن، ويستنبط من آياته المقاصد التشريعية الكلية التي توجه فهم النص القرآني . ومن ثمّ لا يتعامل مع الآيات منفصلةً عن سياقها العام، بل ينظر إلى القرآن بوصفه بناءً متكاملاً تتجلى فيه وحدة النظم وروعة الإعجاز البياني، مستعيناً في ذلك بما توفره اللغة العربية من أدوات للكشف عن دقائق الدلالة وأسرار التعبير . أما السنة النبوية فتمثل عنده المصدر الثاني في التفسير ؛ إذ يعدّها شارحةً لما أُجمل في القرآن، ومبينةً لمراداته، ولا سميا في بيان أسباب النزول وتحديد المقاصد . وعلى الرغم من ميله إلى التفسير القائم على الدراية والنظر العقلي، فإنه يعتني بالأحاديث الصحيحة التي تسهم في توضيح المعاني القرآنية، مع عناية واضحة بتمحيصها والتحقق من صحتها، ويقدمها عند الحاجة على غيرها من الأقوال . كما يولي عنايةً خاصة بالتحليل اللغوي والبياني للنص القرآني ؛ إذ يرى أن فهم الآيات لا يتحقق إلا من خلال دراسة مفرداتها وتراكيبها في ضوء استعمالات اللغة العربية وقوانين البلاغة، ثم استنباط المعاني من دلالات الألفاظ والتراكيب وفق وجوه الدلالة المعروفة، كالمطابقة والتضمّن والالتزام، بما ينسجم مع جمال النظم القرآني وبلاغته، ويسمح تعدد الاحتمالات الدلالية في حدود ما يسمح به السياق والنظم البديع.

ثانياً: القيمة العلمية للتفسير: يُعَدُّ هذا التفسير من أبرز تفاسير العصر الحديث وأمتنها من حيث البناء العلمي والدقة في التحقيق، إذ جمع بين سعة الاطلاع وعمق التحليل . وعلى الرغم مما قد يُلحظ فيه من بعض المآخذ وهو أمر لا يكاد يخلو منه مؤلَّف في علم التفسير فإن تلك الملاحظات تبقى محدودة إذا ما قيست بما يزخر به الكتاب من فوائد علمية ومعارف تفسيرية جليلة .

ثالثاً: مصادره في التفسير: يُلحَظ في طريقة الإمام ابن عاشور في توثيق مصادره أنه لا يلتزم اسلوباً واحداً في الإشارة ؛ فقد يذكر اسم الكتاب دون الإشارة إلى مؤلفه، أو يصرّح باسم المؤلف من غير ذكر المصدر، وفي مواضع أخرى يجمع بينهما معاً . وقد بيّن في مقدمة تفسيره أهم المراجع التي اعتمد عليها، وعدّها من أبرز كتب التفسير التي يرجع إليها الباحثون، مشيراً إلى أن كثيراً من التفاسير المتأخرة تعتمد في مادتها على ما سبقها، ولا يضيف أصحابها إلا قدراً يسيراً مع اختلاف في أساليب العرض بين الإيجاز والإسهاب(١) . ومن أبرز التفاسير التي أفاد منها: الكشاف للزمخشري، والمحرر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي، وتفسير البيضاوي الذي يُعَدّ خلاصةً محرَّرة لما في الكشاف ومفاتيح الغيب، فضلاً عن روح المعاني للشهاب الآلوسي، وحواشي الطيبي(٢) والقزويني والتفتازاني على «الكشاف»، وشروح الخفاجي(٣)على تفسير البيضاوي، إضافة إلى تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي(٤).

المبحث الثالث: صيخ الترجيح في تفسيرهما دراسة مقارنة .

المطلب الأول: تعريف الترجيح واهميته:

أولا: تعريف الصيغة لغة واصطلاحا:

أ - الصيغة لغةً: تُشتق الصيغة في اللغة من الفعل صاغ يصوغ، وتدل على الهيئة أو الكيفية التي يُبنى عليها الشيء. فيقال: صيغة الأمر أي: هيئته التي ورد عليها، كما يُقال: صيغة الكلام أي: بنائه وتركيبه، وصيغة الكلمة هي الهيئة الناتجة عن ترتيب حروفها وحركاتها . وعلى هذا فالصيغة تُراد بها هيئة اللفظ أو البناء اللغوي الذي وُضع للدلالة على معنى معيّن(٥).

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ج١ / ص٧.

(٢) الكتاب الشهير للإمام شرف الدين الطيبي (ت: ٧٤٣هـ) والمعروف باسم (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، وهو من أهم وادق الشروح والحواشي البلاغية واللغوية التي كتبت على تفسير ٠الكشاف للزمخشري .

(٣) هي سلسلة من التعليقات والتوضيحات العميقة التي ألفها العالم اللغوي والأصولي «شهاب الدين الخفاجي» على تفسير «انوار التنزيل واسرار التأويل» للإمام البيضاوي . وتعد من أشمل واهم الحواشي التي كتبت على هذا التفسير

(٤) هو: الإمام محمد بن عرفة الورغمي التونسي نسبة إلى قبيلة ورغمة، شيخ الإسلام وعالم تونسي، مولده (٧١٦هـ) في تونس وتوفي (٨٠٣هـ) عن عمر يناهز ٨٥ عاماً ودفن في تونس .

(٥) ينظر تاج العروس: ٢٢ / ٥٣٦ / صوغ . والمعجم الوسيط: مجمع اللغة بالقاهرة: ١ / ٥٢٩.

ب - الصيغة اصطلاحاً: هي الهيئة أو الأسلوب الذي يُعبَّر به عن رضا المتابعين وموافقتهم، سواء أكان بلفظٍ صريحٍ يدلّ على القبول، أم بفعلٍ يُفهم منه الإقرار والموافقة(١) .

ثانيا: تعريف الترجيح لغة واصطلاحا:

أ - الترجيح لغةً: مصدر، الفعل رَجَحَ، ويُقال رجح الشيء إذا زاد وزنه وثقل، ويُقال رجَّح الشيءَ إذا فضَّله وقوَّاه وأرجحت الرجلَ بالألف: أعطيته راجحاً(٢) .

ب - الترجيح اصطلاحاً: هو تقوية أحد الاحتمالين، أو القولين على الآخر بدليلٍ، أو قرينةٍ تُظهر رجحانه، فيُعمل بالراجح ويُترك المرجوح(٣).

وعند علماء التفسير: يُقصد به تقوية أحد الأقوال الواردة في تفسير الآية اعتماداً على دليلٍ أو قاعدةٍ علمية، مع بيان ضعف ما سواه(٤).

ثالثا: أهمية الترجيح في التفسير:

يُعدّ علم الترجيح من العلوم الأساسية في مجال التفسير، إذ لا يستطيع المفسِّر ترجيح قولٍ على آخر إلا بالاعتماد على قواعد علمية تضبط عملية الاختيار بين الأقوال المختلفة . وتبرز أهمية هذا العلم في تمكين المفسر من تمييز الأقرب إلى الصواب والأجدر بالقبول في تفسير الآية، مع ردِّ ما عداه من الأقوال الضعيفة أو غير المعتمدة .كما يسهم الترجيح في توجيه الفهم الصحيح لمعاني القرآن الكريم ؛ فيُعمل بالقول الراجح اعتقاداً إذا تعلّق بآيات العقيدة، وعملاً إذا كان في آيات الأحكام، وسلوكاً وأدباً إذا اتصل بآيات الأخلاق والآداب . كذلك يساعد على تنقية كتب التفسير من الآراء الشاذة أو الضعيفة أو المتأثرة بالاتجاهات المذهبية(٥) . ومن ثمّ فإن اعتماد القول الراجح في تفسير الآية أمرٌ لازم ؛ لأنه الأقرب إلى مراد الله تعالى، ولا يصح العدول عنه إلى القول المرجوح لما في ذلك من بُعدٍ عن الصواب(٦) في فهم كتاب الله .

(١) ينظر: الانصاف، علاء الدين أبو الحسن المرداوي، تحقيق: محمد حامد الفقهي، ط١، ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م، ٤ / ١٩٠.

(٢) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأبي العباس الفيومي: ١ / ٢١٩.

(٣) ينظر: المحصول في علم الأصول، للرازي: ٥ / ٣٩٧.

(٤) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، حسين الحربي: ١ / ٣٥.

(٥) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين الحربي: ١ / ٤٠.

(٦) ينظر: قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير دراسة تطبيقية، لعبير بنت عبد الله النعيم، ص١٢٧.

المطلب الثاني: صيغ الترجيح عند الإمام الطبري .

يُعَدُّ الإمام الطبري من أبرز المفسرين الذين عنوا ببيان الأقوال الواردة في تفسير الآيات ومناقشتها ثم اختيار ما يراه أقرب إلى الصواب استناداً إلى الأدلة النقلية واللغوية والسياقية. وقد تنوعت الصيغ التي استعملها للدلالة على الترجيح في تفسيره، مما يعكس دقة منهجه في الموازنة بين الأقوال وتمحيصها قبل الحكم عليها.

ونأخذ نماذج من تفسيره كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[1] تبيَّن أنه استخدم عدداً من الصيغ الدالة على الترجيح، من أبرزها: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب»، و «والصواب من القول عندنا»، و «وأشبه الأقوال بظاهر التنزيل»، و «وأقرب الأقوال إلى الصواب»، و «وأحب ذلك إليَّ»، ونحوها من العبارات التي تدل على تفضيل أحد الأقوال على غيره.

وتكشف هذه الصيغ عن منهج الطبري في التعامل مع الخلاف التفسيري؛ إذ لا يقتصر على مجرد نقل الأقوال، بل يعقبها بالمناقشة والاستدلال ثم بيان القول الذي يراه راجحاً. كما أن اختلاف الصيغ المستعملة يدل على تنوع مسالكه في الترجيح بحسب طبيعة المسألة التفسيرية والأدلة المتعلقة بها.

وعليه، فإن صيغ الترجيح تمثل جانباً مهماً من منهج الإمام الطبري في التفسير، إذ تُظهر طريقته في نقد الأقوال وتمييز الراجح من المرجوح، وسيأتي بيان تطبيقات هذه الصيغ ومواضعها في أثناء دراسة المسائل التفسيرية الواردة في سور الدراسة

المطلب الثالث: صيغ الترجيح عند الإمام ابن عاشور:

تظهر صيغ الترجيح عند الإمام ابن عاشور في تحديد الأقوال الراجحة واختيار الرأي الذي يتوافق مع الأدلة الأقوى في تفسير الآية . وقد استخدم الإمام أساليب متعددة في التعبير عن ترجيحه على وفق ما يلي:

أولاً: الترجيح بصيغ التفضيل: مثل أظهر، أشهر، أرجح، أصح، للدلالة على أفضلية قول على آخر، كبيانه لتوقيت خطاب الله تعالى للملائكة عند خلق آدم بأنه الأول والأظهر[2] .

(١) سورة لقمان: الآية (٢٧).

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ١ / ٤٠٠.

ثانياً: الترجيح بالانتقاص من الأقوال الأخرى: باستخدام ألفاظ تدل على الضعف أو البطلان مثل ضعيف، بعيد، باطل، لتأكيد أفضلية القول الآخر، كما فعل عند تفسير الليلة المباركة حيث وصف قول عكرمة بأنه ضعيف ورجح القول الصحيح[١] .

ثالثا: الترجيح بتقديم القول الراجح أولاً: إذ يبدأ بعرض الرأي الأقوى ثم يبيّن بقية الأقوال في سياق الشرح، كما في سورة الاحزاب: جزء من الآية ٥٢، حيث يوضح ابن عاشور التأويل الأرجح قبل الإشارة إلى تفسيرات أخرى .

رابعاً: الترجيح بالاقتصار على القول الراجح: من دون ذكر البدائل، للدلالة على اعتماد هذا القول بشكل كامل، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[٢]، فقد فسر ابن عاشور الآية بأن المقصود بيان ان خلق الله تعالى كخلق نفس واحدة وبعثها، مبيناً المعنى مباشرة من غير ان يورد الأقوال الاخرى الواردة في تفسير الآية أو يناقشها، مكتفياً بالمعنى الذي ارتضاه[٣].

نأخذ مثال على ذلك من الترجيح بين الامامين:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾[٤] .

في الآية الكريمة مسألة واحدة: وهي: اختلف المفسرون في المراد ب«اليوم» في الآية الكريمة يومٌ حقيقيٌّ تُقَدَّر فيه مدةُ عروج الأمر من الأرض إلى السماء ونزوله بألف سنة من سنيّ الدنيا، بناءً على تقدير المسافة بينهما، أم أن المراد به بيان عِظَم هذا التدبير الإلهي، واختلاف مقياس الزمن بين الخالق والمخلوق .

قول الإمام الطبري رحمه الله: ذكر الإمام الطبري رأيه بشكل واضح في هذه المسألة من خلال ذكره وأولى الأقوال عنده فقال: « وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثمّ يعرج إليه في يومٍ، كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم، خمس مائة في النزول، وخمس مائة

(١) المصدر نفسه، ١٢ / ٢٧٧.
(٢) سورة لقمان: الآية (٢٨).
(٣) (التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: ٢٢ / ١٨٤.
(٤) (سورة السجدة: الآية (٥) .

في الصعود، لأن ذلك أظهر معانيه، واشبهها بظاهر التنزيل[١] . أي: رجّح الإمام الطبري أن المراد باليوم في الآية هو يومٌ حقيقي، يتم فيه نزول الأمر من السماء إلى الأرض ثم عروجه إليها . واستند في ترجيحه إلى موافقة هذا القول لظاهر الآية، وكونه اظهر معانيها وأقربها للسياق .

قول الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله في هذه المسألة حيث ذكر رحمه الله رأيه من خلال قوله: أن المراد بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ بيان عظمة التدبير الإلهي وسعة القدرة، وأن ما يقع في ذلك اليوم من التصرف في شؤون الخلق لو قيس بمقاييس البشر لكان في مقدار ألف سنة من سنيهم. ويرى أن ذكر الألف سنة ليس المقصود به تحديد مدة حقيقية لعروج الأمر ونزوله بين السماء والأرض، وإنما هو تقريب للمعنى إلى الأذهان وتنبيه على عظمة ما يجري فيه من تدبير الله تعالى لأمور خلقه. كما رجَّح أن اليوم المذكور هو يوم انتهاء نظام هذا العالم واضمحلاله، وأن المقصود من الآية الاعتبار بعظمة ذلك اليوم وما يدل عليه من كمال سلطان الله تعالى وإحاطة تدبيره بجميع شؤون الكون[٢].

أولاً الدراسة الترجيح:

اختلف الإمامان في تفسير مسألة تقدير مدة التدبير الإلهي، حيث رجّح الطبري أن المقصود يوم حقيقي يمتد فيه نزول الأمر وعرجه، بينما رجّح ابن عاشور أن المقصود تمثيل مدة التدبير الإلهي وبيان اختلاف مقاييس الزمن، مع اتفاقهما على بيان كمال تدبير الله وشموله .

صيغة الترجيح: ذكر الإمام الطبري القول الراجح عنده بصيغته المعروفة، فقال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، وهي من أكثر العبارات وروداً في تفسيره عند ترجيحه بين الأقوال المختلفة [٣].

وأما الإمام ابن عاشور فقد ذكر ترجيحه لهذه الآية الكريمة من خلال قوله: أن المراد باليوم تمثيل مدة التدبير الإلهي، مع إبراز شمول التدبير وكماله، وأن ذكر الألف سنة للتقريب أو الكناية عن طول المدة لا للتحديد العددي، مستندًا إلى السياق اللغوي والبلاغي والمقاصدي للآية [٤].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: ١٨ / ٥٩٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢١ / ٢١٤.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري: ١٨ / ٥٩٦.
(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ٢١ / ١١٢.

أسلوب الترجيح: ابتدأ الإمام الطبري رحمه الله بذكر تأويل الآية كما هو راجح عنده ثم أخذ يدلل على ذكر رجحان ما اختاره من اقوال السلف ثم ذكر أولى الأقوال عنده بالصواب .

أما الإمام ابن عاشور يميل إلى الترجيح التحليلي والمقاصدي بحسب السياق والبلاغة مع ترك احتمال لغوي أو تأويلي مفتوح .

وجه الترجيح: اعتمد الإمام الطبري في ترجيح القول على ما نَقَلَ من أقوال للسلف الصالح . أما الإمام ابن عاشور هو يعطي التقدير الأوفق بحسب السياق البلاغي والمقاصدي للآية، دون حسم قطعي كما يفعل الطبري .

ثانياً: أقوال المفسرين في المراد باليوم في الآية الكريمة:

القول الأول: أن المراد باليوم في الآية الكريمة يوم حقيقي مقداره ألف سنة من سني الدنيا. وقد ذهب إلى هذا القول جماعة من المفسرين، مستدلين بظاهر الآية الكريمة وما ورد في تفسيرها من الآثار. غير أنهم اختلفوا في بيان وجه هذه المدة؛ فذهب فريق إلى أن المراد بها مدة عروج الأمر بعد تدبيره ونزوله من السماء إلى الأرض، وأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة نزولاً وخمسمائة سنة صعوداً، فكان مجموع ذلك ألف سنة. وذهب آخرون إلى أن المراد مدة عروج الملائكة أو جبريل عليه السلام بما ينزل به من الوحي والأمر الإلهي ثم صعوده إلى السماء، وأنه يقطع في يوم واحد ما مقداره ألف سنة من سير البشر. كما ذهب بعضهم إلى أن الله تعالى يدبر أمر خلقه مدة ألف سنة ثم يرفع ذلك التدبير إليه ويقضي بما يكون بعده، وقيل: إن المراد يوم من أيام القيامة أو بعض مواقفه وأحواله التي قدرها الله تعالى بألف سنة. وعلى اختلاف هذه التوجيهات فإن أصحاب هذا القول متفقون على حمل اليوم على حقيقته، وأن الألف سنة مرادة على حقيقتها العددية، لا أنها واردة على سبيل المجاز أو التمثيل. وممن نُقل عنه هذا الاتجاه الإمام الطبري، والماتريدي، والزمخشري، والماوردي، والبغوي، ونُقل عن ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي ومجاهد ما يدل على حمل الآية على هذا المعنى، كما ذكر القرطبي هذا القول ضمن الأقوال التي أوردها في تفسير الآية[1].

القول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ليس المقصود به بيان مدة حقيقية لعروج الأمر أو تحديد زمن معين بين السماء والأرض، وإنما أريد به بيان عظمة التدبير الإلهي وامتداد نفاذ

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ك١٨ / ٥٩٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤ / ٨٩. تأويلات أهل السنة، الماتريدي: ٨ / ٣٢٩. النكت والعيون، الماوردي: ٤ / ٣٥٤. الكشاف، الزمخشري: ٣ / ٥٠٨.

الأمر وسعة القدرة الربانية، وأن ذكر الألف سنة جاء لتقريب هذا المعنى إلى أذهان المخاطبين وإظهار ما يتضمنه التدبير الإلهي من إحكام وإتقان وعظمة. فالمقصود عند أصحاب هذا الاتجاه ليس تقدير المسافة أو الزمن بقدر ما هو التنبيه إلى أن تصرف الله تعالى في ملكه وأمره فوق ما يدركه البشر ويقاس بمقاييسهم الزمنية المعتادة. وقد مال إلى هذا الاتجاه فخر الدين الرازي، إذ رأى أن المراد بالألف سنة الإشارة إلى امتداد نفاذ الأمر الإلهي واستمراره، وأن المقصود من الآية بيان دوام سلطان الله تعالى وكمال تصرفه في خلقه، لا مجرد بيان مقدار المسافة التي يقطعها الملك أو الأمر في عروجه ونزوله. وقرر أن ذكر الألف سنة والخمسين ألف سنة في موضع آخر لا يلزم منه إرادة التحديد العددي المحض، بل قد يراد بهما بيان عظمة الأمر وشدة امتداده، وأن التعبير بالأعداد جاء على وجه إظهار كمال النفاذ والدوام. واختار ابن عاشور هذا الاتجاه، فذهب إلى أن المراد باليوم المذكور في الآية يوم عظيم من أيام الله تعالى، وأن تقديره بألف سنة ليس المقصود منه تحديد مدة العروج على الحقيقة، وإنما المقصود تصوير عظمة ما يقع فيه من شؤون التدبير الإلهي. ويرى أن ما يجري فيه من التصرفات والأحكام الإلهية لو قيس بمقاييس البشر لاحتاج إلى زمن طويل يقدر بألف سنة من سنيهم، فجاء التعبير بذلك لتقريب المعنى إلى الأفهام ولفت الأنظار إلى سعة القدرة الإلهية وعظمة الملكوت وكمال التدبير. وعلى هذا القول فإن ذكر الألف سنة لا يراد به الوقوف عند ظاهر العدد من حيث كونه زمناً محدداً، وإنما يراد به إبراز عظمة التدبير الإلهي واتساع دائرة التصرف الرباني في الكون، وأن جميع الأمور مردها إلى الله تعالى ومصيرها إليه، فهو المتصرف في خلقه والمدبر لشؤونهم على أكمل وجه وأتمه[1].

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لأبن عاشور: ٢١ / ١١٢. مفاتيح الغيب، الرازي: ٢٥ / ١٤٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي أنار بنور كتابه سبل الهداية، وجعل في آياته مناراً للسالكين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ؛ فقد كان هذه البحث رحلة علمية قائمة على التأمل والتحليل، في رحاب التفسير وميادين الترجيح والاختيار، سعت إلى استقراء أقوال المفسرين، وموازنتها وفق منهج علمي رصين، ورؤية نقدية متأنية. وقد انصبنا هذه الدراسة على بيان معالم الترجيح عند الإمامين الجليلين: الطبري وابن عاشور، لما لهما من مكانة علمية بارزة في علم التفسير .

وقد اظهرت دراسة البحث تميز كل من الإمامين بمنهج خاص في عرض الأقوال وترجيحها، واختيار القول الذي يعضده الدليل ؛ إذ اتسم منهج الإمام الطبري بالعناية بالرواية وأقوال السلف، مع استحضار الدلالة اللغوية والسياقية، في حين برز عند الإمام ابن عاشور المنحى البياني والتحليل اللغوي الدقيق، وربط المعاني بمقاصد السياق القرآني . كما كشفت الدراسة عن فروق منهجية دقيقة بين الإمامين في منهج عرض الأقوال، ومنهج الترجيح، ومنهج الاختيار، مع اشتراكهما في تحري الصواب والالتزام بأصول التفسير، بما يعكس تكامل المنهجين: النقلي والتحليلي .

وحرصا على استكمال الفائدة، وإبراز ما أسفرت عنه هذه الدراسة من ثمرات علمية، فإنا نذكر فيما يأتي أهم النتائج التي تم التوصل إليها، ثم ابرز التوصيات التي يقترح الإفادة منها:

اولا: أهم النتائج:

١. إن الإمام الطبري رحمه الله قد أرسى قواعد اصيلة في باب الاختيار والترجيح، قائما على اعتماد الرواية واستحضار اقوال السلف، مع عناية ظاهرة بالجانب اللغوي والسياقي .

٢. إن عاشور أن الإمام ابن عاشور رحمه الله قد شيد منهجه التفسيري على أسس عقلية ولسانية عميقة، فجاءت اختياراته قائمة على تحليل لغوي دقيق واستحضار مقاصد الخطاب، مع مراعاة معطيات العصر وسياقاته العلمية .

٣. ظهر تباين واضح في صيغ الاختيار والترجيح بين الإمامين؛ إذ يميل الإمام الطبري إلى التصريح الصريح بالترجيح بصورة مباشرة، في حين يغلب على الإمام ابن عاشور اعتماد المسلك

التعليلي التحليلي القائم على البيان والتفصيل.

٤. لم يكن الاختلاف بين الإمامين اختلاف بعض تضاد، بل هو اختلاف تنوع وتكامل، يعكس تطور الدرس التفسيري وانتقاله من غلبة الرواية إلى اتساع دائرة النظر والتحليل.

٥. أظهرت الدراسة أن بحث مسائل الاختيار والترجيح يكشف عن أهمية الجمع بين الرواية والدراية، والنص والمقصد، واللغة والواقع؛ للوصول إلى فهم متكامل للنص القرآني.

٦. دل التفسير المقارن بين المدرستين على أثره في تنمية الملكة النقدية لدى الباحث، وتعميق النظر في المعاني، بما يسهم في بناء رؤية تفسيرية أكثر دقة وشمولا.

المصادر والمراجع

بعد القران الكريم، مرتبة على الحروف الهجائية من دون احتساب (أل).

١. لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٢. جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري(المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: الاولى - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣. التحرير والتنوير الطبعة التونسية، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.

٤. صفوة التفاسير، المؤلف: محمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٥. تفسير الشعراوي – الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) الناشر: مطابع أخبار اليوم.

٦. لباب التأويل في معاني التنزيل، المؤلف: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الاولى - ١٤١٥ هـ.

٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الاولى.

٨. زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٤.

٩. تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر

والتوزيع، الطبعة: الثانية / ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
١٠. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.
١١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (المتوفى: ١٣٤٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٢. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٣. المفردات في غريب القران، الراغب الاصفهاني، الطبعة: الاولى / الميمنية، القاهرة.
١٤. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الاولى، / ١٤١٨ هـ.
١٥. تفسير اللباب، لابن عادل، المؤلف: أبو حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقى الحنبلى المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ، دار النشر / دار الكتب العلمية بيروت.
١٦. جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الاولى / ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الاولى / ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م. أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعارفي الاشبيلي المالكي (ت٥٤٣هـ) راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٨. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد

الجوزي (ت: ٥٧٩هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٩. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، أ .د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، طبع بإذن رئاسة غدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٥ / ٩٥١، ط١، وتاريخ ٥ / ٨ / ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢١. إرشاد العقل السليم غلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢٢. أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢٣. إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٤. الأعلام، خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، ط ١٥، أيار / مايو ٢٠٠٢م.

٢٥. أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٢٦. الإمام الطبري شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين، محمد الزحيلي، دار القلم، ط٢، ١٤٢٠هـ ١٩٩م.

٢٧. إمام المفسرين والمحدثين والمؤرخين ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، د. علي عبد العزيز الشبل، دار النشر: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٢٨. الإمام محمد بن جرير الطبري شيخ المفسرين، رسالة ماجستير، الحسين عبد الغني أبو الحسن، إشراف: أ. د. محمد شوقي.

٢٩. إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ت: ١٤٠١هـ)، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٢م.

٣٠. الأنساب، أبو السعود، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت:

٥٦٢هـ)، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١ (١٣٨٢هـ ١٩٦٢م)، (١٤٠٢هـ ١٩٨٢م) .

٣١. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي (٧١٧ ٨٨٥هـ)، صححه وحققه: محمد حامد الفقي (ت: ١٣٧٨هـ)، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م، وصورتها: دار إحياء التراث العربي بيروت .

٣٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٣٣. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .

٣٤. البحر المحيط (في التفسير)، محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، بعناية: صدقي محمد جميل العطار (ج ١ و١٠) زهير جعيد (ج ٢ إلى ٧) عرفان العشا حسونة (ج ٨إلى ١٠)، الناشر: دار الفكر، بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .